الفصل الثالث

شاعريته وفنه

١

الخصائص الفنية العامة لشعره

تبين لنا من دراستنا لأغراض طرفة أنه نظم في معظم الفنون المعروفة في العصر الجاهلي، من غزل، ووصف، ومديح، وهجاء، وفخر، وحكمة، ولوم، وحنين، وأنه برع فيها كلها، وبخاصة في الوصف والفخر والهجاء والحنين والحكمة؛ لأنها كانت تنساب من نفسه المنفعلة بما يقول:

وكنا نقف عند كل غرض من تلك الأغراض وقفة طويلة مستأنية، نحلل صنيع الشاعر الفني، فنستنطق النصوصَ القِيَم الفنية والشعورية التي بثّها في تضاعيف شعره، معناه ومبناه، بحيث تتضح لنا معالم الغرض الفنية، وتستبين لنا خصائص الشاعر فيه.

وسنحاول الآن رصد الخصائص الفنية العامة للشاعر، والطوابع الكبرى التي طبع بها فنه، على ضوء ما سبق من دراسة أغراضه الشعرية المتعدّدة، شكلها ومضمونها.

١ ـ منهج القصيدة:

لا يمكن القطع في المنهج الذي اختطّه طرفة لقصيدته ولم يخرج عليه، إذ لم يصلنا من شعره الموثّق إلا أقله، ونحن إذا ما أردنا تحرّي منهج القصيدة عند طرفة، فيما وصل إلينا من شعره، تبين لنا أن قصائده ومقطّعاته الثماني عشرة التي وردت في ديوانه برواية الأصمعي لم تخضع لمنهج واحد، فلقد استهلّ سبعاً منها فقط

بالنسيب، ووقف على الأطلال، ولم يفعل ذلك في الإحدى عشرة الأخرى، فقد عريت هذه من كل أنواع المقدمات، وطرق الشاعر فيها موضوعه من أول بيت.

وتعليل ذلك، في رأيي، يرتد إلى أحد أمرين: الأمر الأول: أن القصائد أو المقطعات التي خلت من المقدمات الغزلية قد ضاعت مقدماتها التقليدية، فيما ضاع من شعر الشاعر.

والأمر الثاني: أن الشاعر كان في حالة من الانفعال الشديد حين دارت في رأسه سورة الشعر، فلم يمهله انفعاله أن يقف ليصوغ المقدمة الفنية التقليدية، بل فاضت نفسه بالأفكار التي ازدحمت في خاطره، والمشاعر التي استبدت بنفسه، فجاءت كما هي من غير مقدمات. ويعزز هذا التعليل أن معظم القصائد والمقطعات التي عريت من المقدمات هي في الهجاء أو الفخر، وقد كان طرفة عند معالجته هذين الموضوعين في الذروة من الانفعال.

وسواء أصح الأمر الأول أم الثاني، فإن طرفة من الشعراء الفحول القدامى الذين أرسوا دعائم المنهج التقليدي للقصيدة الجاهلية، إذ جعل معلقته، وهي أم قصائده، وقصائد أخر من جياد قصائده، أوعية لموضوعات شتى، تُستَهَلّ بالنسيب، وتحتوي على الوصف والهجاء والفخر والحكمة، وغير ذلك من الموضوعات التي عرفها الشعر الجاهلي، ولكنه، في الوقت نفسه، لم يجعل منه منهجاً ملزماً للشاعر في كل ما يقول:

ب ـ المعاني:

لا مُشاحَّة في أن طرفة بلغ في ريّق شبابه مرتبة عالية في عالم الشعر والشعراء، لم يبلغها شعراء آخرون أفنوا أعمارهم في قرض الشعر. وما كان ليبلغ هذه المنزلة، على حداثة سنه، لو لم يكن على جانب عظيم من حدّة الذهن، ونباهة الفكر، وخصب الموهبة، ورهف الحسّ، وقوة الشاعرية.

كان من الشعراء الأُوَل الذين عبَّدوا الطريق لمن جاء بعدهم، ورفعوا لهم الأعلام، وأقاموا الصُّوى، وابتكروا المثال، ووضعوا الأصول، ونسجوا بديع

النظم، وسبقوا في كثير مما قالوه إلى الأبكار الخرّد الحسان من المعاني التي لم يفترعها قبلهم شاعر.

ولقد وقف القدماء عند كثير من تلك المعاني التي سبق إليها طرفة، وأخذها عنه من جاء بعده، فنسبوا إليه أوليّة الاختراع، وأقروا له بفضيلة السبق والابتكار.

ذكر الجاحظ[1] أن رجلاً أنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول طرفة:[2]

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشةِ الفَتَى ... وجَدِّكَ لَمْ أَحفِلْ متَى قامَ عُوَّدي

فقال عمر معارضاً قول طرفة: «لولا أن أسير في سبيل الله، وأضعَ جبهتي لله، وأجالسَ أقواماً ينتقون أطايبَ الحديث كما ينتقون أطايب التمر، لم أبالِ أن أكون قد مِتُّ».

ولقد تداول الشعراء والعلماء عبر القرون هذا المعنى، فنسجوا على مثاله، وحذوا حذوه، وقلّبوه على وجوهه، وعارضوه. وحفظت لنا كتب الأدب هذا التداول الطريف لهذا المعنى البكر الذي افترعه طرفة، ثم تركه شائعاً بين الناس، يدلي كل راغب فيه بدلوه متى شاء.

ذكر ابن قتيبة[3] أن مما سبق إليه طرفة، فأُخذ منه، قوله:[4]

فَلَوْلا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَى ... وجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ متَى قامَ عُوَّدي
فَمِنْهُنَّ سَبْقي العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وكَرّي، إذا نادى المُضافُ، مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الغَضا، نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ
وتَقْصيرُ يومِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ، ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ

أخذه عبدُ الله بن نَهيك بنِ إسافٍ الأنصاريُّ[5]، فقال:

---

(١) البيان والتبيين ٢: ١٩٥. وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٣٠٨.
(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٤٥، ٤٦.
(٣) الشعر والشعراء: ١٩٠ ـ ١٩٣.
(٤) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٤٥، ٤٦.
(٥) هو عبد الله بن أبي معقل بن نَهيك بن إساف بن عدي الأنصاري، شاعر حجازي مقل، من شعراء الدولة الأموية.

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَى ... وجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قامَ رامِسُ
فَمِنْهُنَّ سَبْقي العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كأنَّ أُخاها مَطْلَعَ الشَّمْسِ ناعِسُ
ومِنْهُنَّ تَجْريدُ الكَواعِبِ كَالدُّمَى ... إذا ابتَزَّ عن أَكْفالِهِنَّ المَلابِسُ
ومِنْهُنَّ تَقْريطُ الجَوادِ عِنانَهُ ... إذا اسْتَبَقَ الشَّخْصَ الخَفِيَّ الفَوارِسُ[1]

وذكر ابن عبد ربه[2] أبياتاً في التلصّص، أنشدها أبو زيد الأعرابي، وكان لصّاً:

ثَلاثُ خِلالٍ لَسْتُ عَنْهُنَّ تائِباً ... وإنْ لامَني فيهِنَّ كُلُّ خَلِيلِ
فمِنْهنَّ أَنّي لا أَزالُ مُعانِقاً ... حَمائِلَ ماضي الشَّفْرَتَيْنِ صَقيلِ
بِهِ كُنْتُ أَسْتَعْدي وأُعْدي صَحابَتي ... إذا صَرَخَ الزَّحْفانِ بِاسْمِ قَتيلِ
ومِنْهُنَّ سُوقُ النَّهْبِ في لَيْلَةِ الدُّجى ... يَحارُ بِها في اللَّيْلِ كُلُّ دَليلِ
ومِنْهُنَّ تَجْريدُ الكَعابِ ثِيابَها ... وقَدْ مالَ جُنْحُ اللَّيلِ كُلَّ مَميلِ

ثم قال ابن عبد ربه: وهذا المعنى سبقه إليه الأول، وهو عبد الله بن نَهِيك، وأورد أبيات ابن نَهيك الأربعة السابقة، وقال: وأول مَنْ قال هذا المعنى طرفة، ثمّ ساق أبيات طرفة الأربعة.

وقال ابن عبد ربه أيضاً في كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان والحيوان[3]:

«قيل لطرفة: ما السرور؟ فقال: مطعم هنيّ، ومشرب رويّ، وملبس دفيّ، ومركب وطيّ، وكان يؤثر الخفض والدعة». وأورد ابن عبد ربه بعد ذلك أبيات طرفة: فلولا ثلاث... ثم قال:

«وسمع هذه الأبيات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال: أنا والله لولا

---

(١) تقريط الجواد عنانه: أي جعل عنانه كالقرط من شدّة العدو.
(٢) العقد الفريد ٤/ ٦٤.
(٣) العقد الفريد ٧/ ٢١٢.

ثلاث لم أحفل متى قام عوّدي: لولا أن أعدل في الرعية، وأقسم بالسّويّة، وأنفر في السّريّة». ثم أورد ابن عبد ربه أبيات ابن نَهيك مرة ثانية.

وأورد العباسي[1] أيضاً أبيات طرفة: فلولا ثلاث... ثم أبيات ابن نَهيك مشيراً إلى أنه أخذها من طرفة، ثم قال:

«وقد ناقض عبد الحميد بن أبي الحديد البغدادي[2] أبيات طرفة السابقة فقال:

لَوْلا ثَلاثٌ لَمْ أَخَفْ صَرْعَتي ... لَيْسَتْ كَما قالَ فَتَى العَبْدِ
أَنْ أَنْصرَ التَّوحيدَ والعَدْلَ في ... كُلِّ مكانٍ باذِلاً جَهْدي
وأَنْ أُناجي اللهَ مُسْتَمْتِعاً ... بِخَلْوَةٍ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
وأَنْ أَتِيَهَ الدَّهْرَ كِبْراً عَلَى ... كُلِّ لَئيمٍ أَصْعَرِ الخَدِّ
لِذاكَ أَهْوَى لا فَتاةٍ وَلا ... خَمْرٍ، ولا ذي مَيْعَةٍ نَهْدِ».

وذكر ابن قتيبة[3] أن مما سبق إليه طرفة فأخذ منه قوله يذكر السفينة:

يَشُقُّ حَبابَ الماءِ حَيْزُومُها بِها ... كَما قَسَمَ التُّرْبَ المُفايِلُ بِالْيَدِ[4]

أخذه لَبيد فقال:

تَشُقُّ خَمائِلَ الدَّهْنا يَداهُ
كَما لَعِبَ المُقامِرُ بِالْفِيالِ

وأخذه الطِّرِمّاح فقال:

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١/ ٣٦٤.

(٢) هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسن بن أبي الحديد البغدادي، عالم بالأدب، له شعر جيد، من أعيان المعتزلة، ولد سنة ٥٨٦ هـ في المدائن، وانتقل إلى بغداد، وخدم في دواوين الدولة، وبرع في الإنشاء، وكان حظيّاً عند الوزير ابن العلقمي، له ديوان شعر، ومؤلفات عديدة في اللغة والأدب، توفي ببغداد سنة ٦٥٥ هـ.

(٣) الشعر والشعراء: ١٩٠ - ١٩٣.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٠.

وغَدا تَشُقُّ يَداهُ أَوْساطَ الرُّبا قَسْمَ الفِيالِ تَشُقُّ أَوْسَطَه اليَدُ

ومن ذلك قوله[1]:

ومَكانٍ زَعِلٍ ظِلْمانُهُ كَالْمَخاضِ الجُرْبِ في اليومِ الخَدِرْ
قَدْ تَبَطَّنْتُ وتَحْتي سُرُحٌ تَتَّقي الأَرْضَ بِمَلْثُومٍ مَعِرْ

أخذه غدي بن زيد ولبيد، فقال عدي:

ومَكانٍ زَعِلٍ ظِلْمانُهُ كَرِجالِ الحُبْشِ تَمْشي بِالْعَمَدْ[2]
قَدْ تَبَطَّنْتُ وتَحْتي جَسْرَةٌ عُبُرُ أَسْفارٍ كمِخْراقٍ وَحَدْ[3]

وقال لبيد:

ومَكانٍ زَعِلٍ ظِلْمانُهُ كَحَزِيقِ الحَبَشِيِّينَ الزُّجَلْ[4]
قَدْ تَبَطَّنْتُ وتَحْتي جَسْرَةٌ حَرَجٌ في مِرْفَقَيْها كَالْفَتَلْ[5]

ومما سبق إليه قوله:

سَتُبْدي لَكَ الأَيّامُ ما كنتَ جاهِلاً وَيَأْتيكَ بالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وذكر كلٌّ من المفضّل بن سلمة[6]، وأبي عبيد البكري[7] أن طرفة أول من قال: ستبدي لك الأيام...

وأورد ابن عبد ربه هذا البيت، وأتبعه بقوله: «وفي هذا مثلان من أشرف

---

(١) تقدم البيتان وشرحهما ص ١٠٤، ١٠٥.
(٢) الزعل: النشيط. الظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام.
(٣) الجسرة: الناقة الطويلة الضخمة. وَوَحَد: منفرد، وأراد ثوراً وحشياً.
(٤) الحزيق: الجماعة من الناس. الزجل: جمع زجلة، وهي الجماعة من الناس.
(٥) الحرج: الناقة الجسيمة الطويلة. الفتل: تباعد ما بين المرفقين.
(٦) الفاخر: ١٨٠.
(٧) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ٢٤٣.

الأمثال، ويقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع هذا البيت، فقال: إن معناه من كلام النبوّة[1].

وأورد المرزباني[2] والسيوطي[3] هذا البيت، وقالا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر[4] تمثل بعجزه:

ويَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وكذلك أورد العباسي[5] والسيوطي[6] البيت، وقالا: كان النبي ﷺ يتمثل به.

وزاد السيوطي[7] قوله: «وأخرج ابن جرير عن قتادة، قال: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طرفة:

سَتُبْدي لَكَ الأَيّامُ ما كُنْتَ جاهِلاً ... وَيَأْتيكَ بالأَخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وذكر المبرد قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك[8]:

إذا القَوْمُ قالوا: مَنْ فتىً لِمُلِمَّةٍ ... فَما كُلُّهُمْ يُدْعَى، ولكنّه الفَتَى

ثم قال: ومثل هذا الشعر قول النهشلي:

لَوْ كانَ في الأَلْفِ مِنّا واحِدٌ فَدَعَوْا ... مَنْ فارِسٌ؟ خالَهمْ إيّاهُ يَعْنونا

وأردف المبرّد قائلاً: «وأول هذا المعنى لطرفة»:

إذا القَوْمُ قالُوا: مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّني ... عُنِيتُ، فلَمْ أَكْسَلْ، ولَمْ أَتَبَلَّدِ

(١) العقد الفريد ٣/ ٧٢.
(٢) معجم الشعراء: ٢٠١.
(٣) شرح شواهد المغني: ٢٧٢. وقد أورد السيوطي الخبر عن الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن عائشة.
(٤) أي استبطأه.
(٥) معاهد التنصيص ١/ ٣٦٤.
(٦) شرح شواهد المغني: ٢٧٢. وقد أورد السيوطي الخبر عن البزار والطبراني عن ابن عباس.
(٧) شرح شواهد المغني: ٢٧٢.
(٨) الكامل ١/ ١١٤، ٤/ ٧٩، ٨٠.

وذكر المفضّل بن سلمة[1] أن طرفة أول من قال:

خَلالَكِ الجَوُّ فَبِيضي واصْفِري

وهو يومئذ صغير، ثم ساق المناسبة التي قال فيها طرفة هذا الرجز، وقد سبق بسطها في كلامي على نشأته[2].

وكذلك أورد أبو عبيد البكري سبق طرفة إلى هذا القول في كتابه فصل المقال في شرح كتاب الأمثال[3]

ومن المعاني التي سبق إليها طرفة، ونوّه بها القدماء قوله:

ألا أَيُّهَا اللَّيْلَةَ بِالْبارِحَهْ

فقد ذكر المفضَّل بن سلمة[4] أن أول من قاله طرفة بن العبد[5].

وكذلك أورد هذا القول أبو عبيد البكري[6]، وأشار إلى أن أول من قاله طرفة، يلوم أصحابه في خذلانهم إياه حينما وقع في أسر عمرو بن هند.

وذكر ابن قتيبة[7] أن طرفة أول من ذكر الأُدْرة في شعره، فقال[8]:

فما ذَنْبُنا في أَنْ أُداءَتْ خُصاكُمُ ... وأَنْ كُنْتُمُ في قومِكمْ مَعْشَراً أُدْرا

إذا جَلَسوا خَيَّلْتَ تحتَ ثيابِهِمْ ... خَرائِقَ تُوفي بالضَّغِيبِ لَها نَذْرا

وذكرها النابغة الجعدي، فقال:

كَذي داءٍ بِإِحْدى خُصْيَتَيْهِ ... وأُخْرَى لَمْ تَوَجَّعْ مِنْ سَقامِ

---

(١) الفاخر: ١٧٩.
(٢) انظر ص ٤٢.
(٣) ص ٢٩٠.
(٤) الفاخر: ٣١٦.
(٥) انظر أبياته التي فيها هذا المعنى ص ١٨٢.
(٦) العقد الفريد ٦/١٦٨.
(٧) الشعر والشعراء ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٨) تقدم البيتان وشرحهما ص ١٤٧، ١٤٨.

فَضَمَّ ثِيابَهُ من غَيْرِ بُرْءٍ على شَعْراءَ تُنْقِضُ بِالبِهامِ[1]

وطرفة أول من طرد الخيال، فقال[2]:

فَقُلْ لِخَيالِ الحَنْظَلِيّةِ يَنْقَلِبْ إلَيْها، فإنّي واصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

وقال جرير:

طَرَقَتْكَ صائِدَةُ القُلوبِ وليسَ ذا وَقتَ الزِّيارةِ فَارْجِعي بِسَلامِ[3]

وكذلك أورد هذا القول لطرفة في طرد الخيال صاحب العقد الفريد[4] مشيراً إلى أن أول من طرد الخيال طرفة:

وقال ابن رشيق[5]: «فأما طرد الخيال والمجاراة في المحبة، فهو مذهب مشهور، وقد ركبه جلّة الشعراء، ورواه رواة، منهم: طرفة، ولبيد، ثم جرير، ثم جميل، فقال طرفة، وهو أول من طرقه:»، ثم ساق البيت.

وذكر أبو عبيد البكري[6]: أن من أقوالهم في الشدائد: «رأى فلان الكواكب مظهراً»، أي أظلم عليه يومه حتى رأى الكواكب عند الظهر، وقد ذكرت ذلك الشعراء، وأكثرت، قال طرفة:

إنْ تُنَوِّلْهُ فَقَدْ تَمْنَعُهُ وتُريهِ النَّجْمَ يَجْري بالظُّهُرْ

وذكر المفضّل بن سلمة[7]: أن طرفة أول من قال: «لكل مقام مقال»، في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند، وهو قوله:

---

(١) الشَّعْراء: الخصية الكثيرة الشعر. وتنقض: تصوّت، من قولهم: «أنقض بالدابّة» أي صوّت صوتاً بفمه يدعوها به. والبِهام: جمع بهمة، وهو الصغير من أولاد الغنم والبقر وغيرها.

(٢) تقدم البيت ص ٩٧.

(٣) الشعر والشعراء: ١٩٥.

(٤) العقد الفريد ٦/١٦٨.

(٥) العمدة ٢/١٢٥.

(٦) فصل المقال: ٣٦٧.

(٧) الفاخر: ٣١٤.

تَصَـدَّقْ عَلَيَّ هَـداكَ الـمَلِيـكُ فـإنَّ لِكُـلِّ مَقـامٍ مَـقـالا[1]

وبعد، فإن ما تقدم من نقول عن الأقدمين من العلماء والأدباء تثبت لطرفة السبق إلى كثير من المعاني، لدليل واضح على أن طرفة كان من الشعراء القدامى الأوائل الذين افترعوا أبكار المعاني، وشقّقوا أطرافها، وأرسلوها حيّة ولوداً لمن بعدهم، ينظرون فيها، ويتعاورونها، وينسجون على منوالها، ويعارضونها، ويقلبونها على وجوهها.

وبذلك يكون طرفة قد فتح لمن بعده أبواباً من القول، وأغنى أدب العربية بصوب من المعاني غزير.

ولا يقدح في سبقه وابتكاره تلك المعاني ما رواه النقاد لطرفة مأخوذاً من قول امرىء القيس، وهو قوله[2]:

وُقـوفاً بهـا صَحْبي عليَّ مَـطِيَّهمْ يَقـولـونَ: لا تَهْلِكْ أسىً وتَجلَّدِ

إذ قالوا: هو مأخوذ من قول امرىء القيس:

وُقـوفاً بهـا صَحْبي عليَّ مـطيَّهمْ يقولون: لا تَهْلِكْ أَسىً وتَجمَّلِ

وقوله[3]:

أَمـونٍ كَـأَلْـواحِ الإرانِ نَسَـأْتُهـا علَى لاحِبٍ كـأنَّه ظَهْـرُ بُرْ جُـدِ

فقد ذكروا أنه مأخوذ من قول امرىء القيس أيضاً:

وعَنْسٍ كَـأَلْواحِ الإرانِ نَسَـأْتُهـا على لاحِبٍ كالبُرْدِ ذي الحِبَراتِ

ذلك أن هذا التوافق بين ألفاظ كل من البيتين يرجع في الغالب إلى وهم الراوي الذي روى القصيدتين، إذ اختلط عليه الأمر فنقل البيت من شاعر إلى شاعر، وسوّغ له هذا الخلط وحدة الموضوع والبحر. أو أن طرفة كان يحفظ في لا

---

(١) صلة ديوانه ط مجمع اللغة العربية بدمشق: ١٨٩.

(٢) معلقته: ٢.

(٣) معلقته: ١٢.

شعوره قول امرىء القيس، فلما استدعاه سياق النظم معنى ذلك القول، قفز إلى بؤرة شعوره، فأثبته كما كان مختزناً في ذاكرته، لم يغيرّ في نسجه اللفظي إلا قليلاً، وهو يحسب أنه كله من إبداعه ونسجه.

وما كان طرفة من جفاف القريحة ونضب الشاعرية، بحيث يضطر إلى مثل هذه السرقة المكشوفة الساذجة.

جـ ـ الخيال:

لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن التصوير الدقيق البارع من أهم عوامل عبقرية طرفة الشعرية؛ فلقد أوتي طرفة موهبة فطرية في التصوير، مكّنته من هذا الفن، وجعلته يحيط بدقائق الموصوف، ويلم بالأوجه البعيدة بينه وبين ما يشبّهه به، بحيث تأتي صورة ذلك الموصوف دقيقة كل الدقة، محكمة كل الإحكام، وهذا ما عبر عنه الرافعي بقوله: «فكأنه ـ أي طرفة ـ ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البللور[1]».

وقد رفد موهبة طرفة الفطرية في التصوير خيال مجنّح وثّاب، وضع في متناولها عناصر الوصف من مرئيات ومسموعات ومشمومات، مما كانت تقع عليه عينه في تنقلاته وأسفاره الكثيرة عبر البيئة الواسعة العريضة التي تقلّب فيها، فكان له من تضافر الخيال الخصب الواسع، والموهبة اللاقطة المتخيّرة من عناصر الوصف أهم ما يلزم الصورة من دقة وحياة ووضوح، يعينها على ذلك ذوق مرهف حساس، كان له من ذلك كله صور بديعة رائعة، جعلت منه شاعراً وصّافاً مبدعاً من الطراز الأول.

كانت صوره في معظمها تعتمد على التشبيه، ولم يكن التشبيه عند طرفة تشبيه شيء بشيء في صفة مشتركة بينهما فحسب، بل كان يتحرى أن تكون تلك الصفة في المشبه به من الظهور والشدّة والبروز والدقة بحيث ترفع المشبه إلى أعلى مراتب تلك الصفة التي يريد الشاعر إثباتها له، وتجعل التشبيه من أدق التشبيهات وأبعدها وأبلغها.

والشواهد على صنيعه الفني هذا كثيرة مبثوثة في شعره، منها تشبيهه صاحبته

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

ورفيقاتها من النسوة المنعّمات ببنات المخر، وذلك في قوله[1]:

لا تَـلُمْـني إنَّـهـا مِـنْ نِـسْـوَةٍ رُقَّـدِ الـصَّيْـفِ مَقـالِيتَ نُـزُرْ
كَبَنـاتِ المَخْـرِ يَـمْـأَدْنَ كَمـا أَنْبَتَ الصَّيْفُ عَسالِيجَ الخَضِـرْ
فَجَعـوني يَـوْمَ زَمّـوا عِيـرَهُمْ بِـرَخيمِ الصَّـوتِ مَلْثـومٍ عَـطِرْ

وبنات المخر سحائب يأتين مع الصيف قليلات المطر، فلما أراد طرفة أن ينعت حبيبته وصاحباتها بالنعمة والشباب والكبرياء والصون وامتداد القامة والبهاء و«قلة النائل» شبههن ببنات المخر، لأنها أشد السحاب بياضاً، وهي رمز صالح لكل الصفات التي أراد أن يسبغها على محبوبته وصاحباتها. وفي هذه السحب خصوبة، إلا أنها خصوبة متعزّزة نَزرة، وقد كانت العرب تعدّ قلة الأولاد من علامات العتق والكرم، قال كثيّر[2]:

بُغـاثُ الـطَّيْـرِ أَكْثـرُهـا فِـراخـاً وأُمُّ الصَّقْـرِ مِـقْـلاتٌ نَـزورُ[3]

ثم إنه قوّى تشبيهه بقوله: «كما أنبت الصيفُ عسالِيجَ الخَضِرْ» إذ عسالِيج الخضر دقيقات لدنات رويّات وسط الظمأ المحيط بهنّ، مع بهاء ونضرة وبريق. وهذه دقة في التشبيه ما بعدها دقة، توصل إليها طرفة من التفاته إلى المشبه به، واعتنائه بتخيّره غنيّاً بصفاته، وإسباغ هذه الصفات التي حواها على صاحبته ورفيقاتها المنعّمات.

ويقول في وصفه للناقة: [4]

وخَدٌّ كَقِرْطـاسِ الشَّآمي ومِشْفَـرٌ كَسِبْتِ اليَـماني، قِدُّهُ لَمْ يُجَـرَّدِ

فقد وقف عند خدّها، فشبهه بقرطاس الشآمي في بياضه وجودته ونعومته، وهذا يعني أن خدّها عتيق لا شعر فيه، ومشفرها طويل كنعال الجلد اليماني،

---

(١) تقدمت الأبيات في ص ٩٣، ٩٥.
(٢) البيت في اللسان (قلت) و (نزر) لكثيّر. وفي (بغث) لعباس بن مرداس.
(٣) بغاث الطير: الطير الذي يُصاد ولا يَصيد. ومقلات: لا يعيش لها ولد. ونزور: قليلة الأولاد.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٩.

وخص اليماني، لأنهم ملوك، ونعالهم أحسن النعال، ودباغ اليمن أفضل الدباغ، ووصفه بأنه لم يجرّد من الشعر، لأن ذلك ألين له وأحسن.

وواضح أنه خص المشبه به في كل من هذين التشبيهين بعناية فائقة، ليكون مشبَّهُهُ من أجود الأنواع وأجلها.

ويقول في تشبيهه كشح حسنائه بكشح مهاة مطفل[1]:

وَلَهَا كَشْحا مَهاةٍ مُطْفِلٍ تَقْتَري بالرَّمْلِ أَفْنانَ الزَّهَرْ

لقد خص المطفل ذات الولد الصغير، لأنها بحنوّها على صغيرها منفردة به، تبدو أجمل منها إذا كانت في قطيعها، وهذا ما أكثر منه طرفة في تشبيهاته، حتى ما يكاد يذكر إلا وبجانبها ولدها الصغير.

ويتلبّث طرفة في تصويره هذه المهاة التي شبه بها حسناءه، موجّهاً عَدَستَه إليها في أربعة أبيات، إذ ينتقل بعد هذا البيت فيصف شعرها المنسدل الملتف الغزير الطويل، ويصف صغر سنها، وغلظ قرنها وملاسته، وحولها ولد لها، تنفض بقرنيها أفنان الشجر، فيتساقط ثمره حوله، وإنها لتحنو على صغيرها الذي لم يشتد ظلفه بعد، فيزيدها حنانها وحدَبها على صغيرها جمالاً وفتنة[2]:

وعَلَى المَتْنَيْنِ مِنْها وارِدٌ حَسَنُ النَّبْتِ أَثِيثٌ مُسْبَكِرْ
جَأْبَةُ المِدْرَى لَها ذُو جُدَّةٍ تَنْفُضُ الضّالَ وأَفْنانَ السَّمُرْ
بَيْنَ أَكْنافِ خُفافٍ فالِّلوَى مُخْرِفٌ تَحْنو لِرَخْصِ الظِّلْفِ حُرْ

إنه تشبيه مطوَّل أنيق، عُنِيَ بصياغته في إحكام وإتقان وجودة شاب مرهف الحس، خصب المخيّلة، ربيب لذة وإلْف نساء، بصير بمواطن الجمال في أجسامهنّ. ومن ثَمّ فهو يمثل إلى حد كبير الذوق العربي الأصيل في النظر إلى جمال المرأة.

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٩٢.
(٢) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٩٢.

ولقد رأينا في التشبيه السابق صورة المهاة في إطار جميل من الطبيعة، والشعراء يتخذون من الطبيعة وسيلة لعرض صورهم، وما إلى نعت الطبيعة يريدون، ولكنهم يريدون الإفصاح عن اللواعج التي في القلوب.

ومن هذا الضرب قول طرفة[1]:

وقَـدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْـلِكَ كُلِّهِ فَهَلْ غيرُ صَيْدٍ أَحْرَزَتْهُ حَبائِلُهْ[2]
كَما أَحْرَزَتْ أَسْماءُ قَلْبَ مُرَقِّشٍ بِحُبٍّ كَلَمْعِ البَرْقِ لاحَتْ مَخائِلُهْ[3]

إنها صورة رائعة لانقداح شرارة الحب في القلب، شبهه طرفة بلمع البرق الصادق، يعقبه المزن الهتون.

ولطرفة استعارات هي من بديع صوره التي أمدّه بها خياله المجنّح وموهبته التصويرية اللاقطة، ومنها قوله[4]:

سَقَتْـهُ إيـاةُ الشَّمْسِ إلّا لِثـاتِـهِ أُسِفَّ ولَمْ تَكْـدِمْ عليـهِ بِـإِثْمِـدِ

فالشمس انسكبت على الثغر الجميل، فسقت الثنايا البراقة بالضوء. أما اللّثات، فقد ذرّ عليها الإثمد.

وهي استعارة جميلة مشعة بالأضواء والألوان، وموحية برفاهية المحبوبة وتنعّمها؛ إذ لم تكدم في حياتها عظمًا فيؤثر في جمال ثغرها.

ومن تهويمات طرفة الرائعة في عالم الخيال، واستعاراته البديعة منه قوله:[5]

وما خِلْتُ سَلْمَى قبلَها ذاتَ رُجْلَةٍ إذا قَسْورِيُّ اللَّيلِ جِيبَتْ سَرابِلُه[6]

---

(١) ديوانه: ١١٨.
(٢) أحرزته حبائله: الهاء عائدة على الصيد، أي هل أنت غير صَيْدٍ صِيدَ فنشب في حبالة صائدة.
(٣) لاحت مخائله: أي شواهده على المطر ودلائله.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٩٨.
(٥) ديوانه: ١١٧.
(٦) ذات رجلة: أي ذات قوة على المشي راجلة. وقسوري الليل: معظمه وأشدّه سواداً. وجِيبَت سرابلُه: أي لُبِسَت قمصه.

فما أجمل السرابيل السود لهذا القسوري التي لُبِسَت، فإذا الكون ظلام دامس حالك السواد.

ومن هذا الضرب من الاستعارات البديعة قوله:[1]

لَيالِيَ أَقْتادُ الصِّبا ويَقودُني ... يَجولُ بنا رَيْعانُهُ ونُجاوِلُه

فما أجمل تشخيص الصِّبا، يقتاده طرفةُ تارة، ويقود طرفةَ تارة أخرى، وريعان الشباب يدور بهما معاً في طلاقة ورشاقة ومرح، فلا يدعهما لحظة في قرار أو سكون.

ومن وثبات خيال طرفة المجنّح وصفه خيال سلمى الذي ألـمّ به، قاطعاً السهول والجبال، وما أحدثه هذا الخيال في نفسه من سعادة وبشاشة وبشر:[2]

سَما لَكَ مِنْ سَلْمَى خَيالَ ودُونَها ... سَوادُ كَثيبٍ عَرْضُهُ فَأَمائِلُهْ[3]

فَذُو النِّيرِ فالأَعْلامُ مِنْ جانِبِ الحِمَى ... وقُفٌّ كَظَهْرِ التُّرْسِ تَجْري أَساجِلُهْ[4]

وأَنَّى اهْتَدَتْ سَلْمَى وسائِلَ بَيْنَنا ... بَشاشَةَ حُبٍّ باشَرَ القلبَ داخِلُهْ[5]

ومن استعاراته البديعة قوله[6]:

وأَنا امرُؤٌ أَكْوي منَ القَصَرِ البادي ... وأَغْشَى الـدَّهْـمَ بِـالـدَّهْـمِ[7]

فقد مثّل إذلاله المتكبرين بكيّهم من داء القَصَر، الذي يصيب العنق فلا يستطيع المريض أن يلوي عنقه، فيضطر أن يلتفت بجسمه كله، وهي حالة تشبه هيئة المتكبرين الذي يتكلفون في التفاتهم، فهو يعرف كيف يشفي هؤلاء المتكبرين

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٩٦.

(٢) ديوانه: ١١٦.

(٣) سواد كثيب: شخصه وما يبدو منه. والأمائل: جمع أميل، وهو الحبل المستطيل من الرمل.

(٤) دوالنير: موضع. والأعلام: الجبال. والقف: ما غلظ من الأرض. والأساجل: مجاري الماء.

(٥) باشر القلب داخله: اي خالطه.

(٦) ديوانه: ٩٠.

(٧) الدهم: الجماعة الكثيرة من الناس.

من مرضهم بإذلالهم وكسر شوكة استعلائهم واستكبارهم، وهي صورة جميلة شاخصة، توحي بالقوة والثقة بالنفس والاعتداد بقدرتها على تأديب الخصوم المستعلين.

وواضح من استعراض صور طرفة أنه كان يستمد مادة خياله من البيئة الواسعة التي تقلّب في ربوعها؛ فمنها ما هو بدوي صرف، ومنها ما هو مزيج من معطيات البيئة الحضرية في البحرين ومعطيات البيئة البدوية في بوادي نجد.

وخيال طرفة وثيق الصلة بنفسيته، يرسم الصور التي تعكس نفسه وما يمور فيها من انفعالات. ومن ثم جاءت صوره في غزله تموج بالبهجة والجمال والأناقة والنعمة والرفاهية، وتتألق بالأضواء والألوان. على حين جاءت صوره في الفخر تضجّ بالقوة والاستعلاء والزهو، واتسمت صوره في الهجاء بالطرافة والعنف والسخرية والإيلام.

وهكذا كانت صوره تعكس ما اعتلج بين جنبيه من مشاعر وأحاسيس.

وخياله حسّيّ خصب غني بالصور البصرية والسمعية والذوقية والشمية. وهي صور تتميّز بالوضوح والدقة والإحكام.

وقد ارتسمت في مخيّلة طرفة، وأخذت طريقها إلى شعره في عفوية ويسر وسماحة، دون أن تلمح عليها أثراً من كدّ الذهن، أو إجهاد القريحة، فزادت بعفويتها ودقتها وإحكامها معاني طرفة سموّاً وجمالاً وقوة.

د ـ العاطفة:

أحاطت بنشأة طرفة وحياته عامة عوامل وظروف باعدت بينه وبين المواقف التي يضطر فيها الشاعر للمجاملة والمداهنة والمراءاة. بل إن تلك العوامل والظروف كما سبق بسطها في الكلام على حياته، كانت تدفعه دفعاً إلى الصراحة والجرأة والجهر بما كان يعتقد من أفكار، ويحس من مشاعر. ومن ثم جاء شعره صورة صادقة لنأمات نفسه، وخلجات قلبه، ووسوسات مشاعره، وكان من أبرز طوابعه الصدق.

فهو صادق في مديحه، لأنه لم يمدح إلا من أسدى إليه يداً أو غمر قومه بنعمة تستحق الثناء والإشادة والتنويه، على نحو ما رأينا في مديحه قتادة بن سلمة الحنيفي الذي أغاث قومه عند الشدّة، فأقال عثرتهم، وفرّج كربهم، وانتشلهم من قبضة الفاقة والبؤس والحرمان[1]:

أَبْلِغْ قَتـادَةَ غيـرَ سـائِلِهِ ... منـهُ الثَّـوابَ وعـاجِـلَ الشَّكْمِ
إنّي حَمِـدْتُـكَ لِلْعَشيرةِ إذْ ... جـاءتْ إليـكَ مُـرقَّـةَ العَـظْمِ
أَلْقَـوْا إليـكَ بكـلِّ أَزْمِلَةٍ ... شَعْثـاءَ تحمـلُ مُنْقِـعَ البُـرْمِ
فَفَتحْتَ بـابَـكَ لِلْمَكـارِمِ حِيـ ... نَ تَـواصَتِ الأَبْـوابُ بـالأَزْمِ
فسَقَى بـلادَكَ غيـرَ مُفْسِـدِهـا ... صَـوْبُ الـرَّبيـعِ وَدِيمـةٌ تَهْمي

وهو صادق في هجائه ولومه وعتابه، لأنه سكب فيه حمم غضبه على الذين ناصبوه العداء، أو وقفوا منه موقفاً نكراً، كقوله في هجائه ابن عمه وصهره عبد عمرو بن بشر[2]:

أَلا أَبْلِغـا عبدَ الضَّـلالِ رِسـالـةً ... وقَـدْ يُبْلِغُ الأَنْبـاءَ عنـكَ رسـولُ
دَبَبْتَ بِسِرّي بعدَ مـا قَدْ عَلِمْتَـهُ ... وأنتَ بـأَسْـرارِ الكِـرامِ نَسـولُ

وقوله في هجاء بني المنذر[3]:

من الشَّـرِّ والتَّبْريـحِ أَوْلادُ مَعْشَرٍ ... كَثيرٌ ولا يُعْطُونَ في حادِثٍ بَكْرا
هُمُ حَرْمَلٌ أَعْيَـا على كُلِّ آكِـلٍ ... مُبِيـراً ولَوْ أَمْسَى سَـوامُهُمُ دَثْـرا

وهو صادق في فخره، لأنه كان يعزف فيه على قيثارة الصِّبا المستعلي، ويوقّع

(١) تقدمت الأبيات وشرحها ص ١٦٢.
(٢) تقدمت الأبيات وشرحها ص ١٥١.
(٣) تقدمت الأبيات وشرحها ص ١٤٧.

ألحان الشباب المختال، ويشدو أغاني الفتوّة الفخور، ويتيه بمآثر قومه وكريم فعالهم وخالد أيامهم[1]:

ونحنُ إذا ما الخيلُ زايَلَ بينَها ... من الطَّعْنِ نَشّاجٌ مُخِلٌّ ومُزْعِفُ
وجالَتْ عَذارَى الحَيِّ شَتّى كأنَّها ... تَوالي صُوارٍ والأَسِنَّةُ تَرْعُفُ
ولَمْ يَحْمِ فَرْجَ الحَيِّ إلّا ابنُ حُرَّةٍ ... وعَمَّ الدُّعاءَ المُزْهَقُ المُتَلَهِّفُ
فَفِئْنا غَداةَ الغِبِّ كُلَّ نَقِيذَةٍ ... ومِنّا الكَمِيُّ الصّابِرُ المُتَعَرِّفُ

وهو صادق في حنينه، لأنه ذوب نفسه الملذّعة المشتاقة، التي هدّتها الغربة القاتلة، وبراها الجهد المضني، وهاضها الحنين للأهل والأحبة والديار[2]:

ولا غَرْوَ إلّا جارَتي وسُؤالُها ... أَلا هَلْ لنا أَهْلٌ؟ سُئِلْتِ كَذلِكِ
تُغَيِّرُ سَيْري في البِلادِ ورِحْلَتي ... أَلا رُبَّ دارٍ لي سِوَى حُرِّ دارِكِ
وليسَ امرُؤٌ أَفْنَى الشَّبابَ مُجاوِراً ... سِوَى حيِّهِ إلّا كآخَرَ هالِكِ

وهو صادق في شعره اللاهي العابث الماجن، لأنه يعبر عن نفسه المنغمسة بلذات الحياة ومتعها ومجونها في فترة مبكرة من فترات حياته:[3]

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ حاجَةِ الفَتَى ... وجَدُّكَ لم أَحْفِلْ مَتَى قامَ عُوَّدي
فمِنْهُنَّ سَبْقي العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكَرّي إذا نادَى المُضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الغَضا، نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ

وهكذا نجد الصدق الشعوري هو الطابع المميز لشعر طرفة، لأنه منسرب من النفس المنفعلة، نابع من القلب الشاعر. ومن ثم كان في معظمه متوهّجاً بحرارة الانفعال، ملفوفاً بلفحات العاطفة الصادقة.

هـ ـ الأسلوب:

أسلوب طرفة أسلوب الشاعر الفحل المطبوع، الذي ينساب شعره من

---

(١) تقدمت الأبيات وشرحها ص ١٣٢.
(٢) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٨٧، ٨٨.
(٣) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٤٥، ٤٦.

أعماق نفسه، معبراً عما اختلج في نفسه من أحاسيس ومشاعر، وما دار في خلده من آراء وأفكار، في نظم ملائم للمعنى الذي يطرقه والموضوع الذي يخوض فيه.

ففي الموضوعات التي تتصل بصبوات النفس وحاجات القلب، تراه ينتقي اللفظ الرقيق المؤنس الأليف الموحي بما يعتلج في نفسه من مشاعر.

يقول في إحدى قصائده واصفاً حسناءه الرشيقة[1]:

لَهـا كَبِـدٌ مَلْسـاءُ ذاتُ أَسِـرَّةٍ ... وكَشْحانِ لَمْ يَنْقُصْ طَواءَ هُما الحَبَلْ[2]
إذا قُلْتَ هَلْ يَسْلُو اللُّبانَةَ عاشقٌ ... تُمَرُّ شُؤُونُ الحُبِّ مِنْ خَوْلَةَ الأَوَلْ[3]
وما زادَكَ الشَّكْوَى إلى مُتَنكِّرٍ ... تَظَلُّ بِهِ تَبْكي وليسَ بِهِ مَظَلْ؟[4]

ويقول أيضاً في معلقته[5]:

وفي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ ... مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ
خَذُولٌ تُراعي رَبْرَباً بِخَميلَةٍ ... تَناوَلُ أَطْرافَ البَريرِ وتَرْتَدي
وتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّراً ... تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِ

وفي الموضوعات التي تعكس ما يمور في نفسه من شعور بالعزّة والاستعلاء والفخر، تراه يتخيَّر اللفظ الكريم الفحل الجزل الذي يملأ الفم ويقرع الأذن كما في قوله[6]:

أَنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وقوله يفخر بقومه[7]:

---

(١) ديوانه: ٨٦.
(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٩٣.
(٣) اللبانة هنا: حاجة القلب. وتُمَرّ: تشتد وتقوى. والأول: ما قدم من حبها.
(٤) المتنكر: المتغيّر، ويعني به الطلل. ومظل: موضع يستظلّ به.
(٥) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٩٠، ٩١.
(٦) تقدم البيت وشرحه ص ١٢٥.
(٧) تقدمت الأبيات وشرحها ١٢٨، ١٢٩.

وإذا المُغِيرَةُ لِلْهِياجِ غَدَتْ بِسُعارِ مَوْتٍ ظاهِرٍ ذُعُرُهْ
وَلَّوْا وأَعْطَوْنا الَّذي سُئِلُوا مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ ساقِطٍ أُزُرُهْ
إنّا لَنَكْسُوهُمْ وإنْ كَرِهُوا ضَرْباً يَطيرُ خِلالَهُ شَرَرُهْ

ويركب طرفة متن الغريب في الموضوعات التي يولّي فيها وجهه شطر الصحراء ومفازاتها الفساح، واصفاً الناقة أو الخيل، وما يتصل من ذلك بسبب، فتراه في هذه الموضوعات يقدّ ألفاظه من حطب الصحراء الجزل، ويقتطعها من جلامدها الصم وأراضيها القاسية الحزن. اسمعه يقول في وصف الخيل[1]:

مِنْ يَعابِيبَ ذُكُورٍ وُقُحٍ وهِضَبّاتٍ إذا ابْتَلَّ العُذُرْ
جافِلاتٍ فَوقَ عُوجٍ عُجُلٍ رُكِبَتْ فيها مَلاطِيسُ سُمُرْ

أما ألفاظه في الموضوعات البعيدة عن جو الناقة والخيل والصحراء، فيمتاحها من معين قريحته المطبوعة السجحة، فتأتي واضحة مأنوسة، لا تضنّ بمعانيها، ولا تبعد في مدلولاتها ومقاصدها. اقرأ له إن شئت[2]:

وظُلْمُ ذَوي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً على المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ
فَلَوْ شاءَ ربّي كُنْتُ قيسَ بنَ خالِدٍ ولو شاءَ ربّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ

وألفاظه كلها فصيحة كريمة منتقاة من حرّ الكلام وعتيقه، ائتلفت في جمل بديعة النظم، متينة الحبك، قوية التأليف، لا تؤودها معاظلة، ولا يخدش جمالها هلهلة، ولا يفسد رواءها ركاكة[3]:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيّامُ ما كنتَ جاهِلاً وَيَأْتِيكَ بالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
وَيَأْتِيكَ بالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بَتاتاً ولَمْ تَضْرِبْ لهُ وقتَ مَوْعِدِ

ومن خصائص أسلوب طرفة الموسيقا الملائمة لموضوعاته، فلقد نوّع في

(١) تقدم البيتان وشرحهما ص ١١٣.
(٢) تقدم البيتان وشرحهما ص ١٨٠.
(٣) تقدم البيتان وشرحهما ص ١٦٧.

بحوره، وأكثر من الأوزان القصار المتميّزة بالرشاقة والإطراب، كالرمل والوافر، إلى جانب الأوزان الطوال، كالطويل والكامل. والأوران القصيرة نادرة في الشعر القديم الضارب في مفاوز الصحراء، وإنما تكثر في البيئات الحضرية. وقد أشار أبو العلاء المعري إلى هذه الظاهرة الموسيقية التي برزت في شعراء المدر منذ القديم[1] وهذا ما دعا المستشرق غوستاف فون غر بناوم إلى أن يسلك طرفة في زمرة الشعراء الذين ينتمون إلى مدرسة شعرية نشأت في مناطق الجزيرة والمناطق العراقية والحيرة، العاصمة الثقافية لتلك المناطق، وتميّزت بالتنوع في الوزن، والنزوع إلى البحور الخفيفة: ويرى فون غر نباوم أن هذه المدرسة أكثرت من بحر الرمل على وجه الخصوص، ولم يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤ اد في ثلاث قصائد، وطرفة في ثلاث قصائد، وعدي بن زيد في سبع قصائد، والمثقب في واحدة، والأعشى في اثنتين[2].

والموسيقا في شعر طرفة مشاكلة للموضوع الذي تواكبه وتنساب منه، فهي في وداعه وحنينه حزينة حنون، تنسرب من الألفاظ الرقيقة الموحية الحزينة، مصورة الحزن العميق الذي انطوت عليه جوانح طرفة، والحنين الواصب إلى الأهل والديار[3]:

قِفي ودِّعينا اليومَ يـا ابنةَ مـالِكِ وعُوجي علَيْنا مِنْ صُدورِ جمالِكِ
قِفي لا يَكُنْ هـذا تَعِلَّةَ وَصْلِنـا لِبَيْنٍ ولا ذا حَظُّنـا مِنْ نَـوالِـكِ
أَخَبِّـرْكِ أَنَّ الحَيَّ فَـرَّقَ بَيْنَهُمْ نـوًى غَرْبَـةٌ ضَرّارَةٌ لي كَـذلِـكِ

وهي في فخره وهجائه فخمة هادرة، تصور العزة والكبرياء والاستعلاء[4]:

إنّـا لنَكْسُـوهُمْ وإنْ كَـرِهُـوا ضَـرْباً يَـطيرُ خِـلالَـهُ شَـرَرُهْ

(١) الفصول والغايات ١/٢١٢.
(٢) دراسات في الأدب العربي لفون غرنباوم: ٢٦٥ وما بعدها.
(٣) تقدمت الأبيات وشرحها ص ٨٧.
(٤) تقدم البيت ص ١٢٩.

وهي في حكمته هادئة رتيبة رزينة، وئيدة الخطوات، شجية الإيقاع[1]:

والإثْمُ داءٌ ليسَ يُـرْجَى بُـرْؤُهُ والبِـرُّ بُـرْءٌ ليسَ فيـهِ مَعْـطَبُ
والصِّدْقُ يَـأْلَـفُهُ اللَّبيبُ المُرْتَجَى والكِـذْبُ يـأْلَـفُهُ الـدَّنِيُّ الأَخْيَبُ

وهكذا تنسرب الموسيقا من شعر طرفة متناغمة مع التجربة الشعورية التي عاشها، موائمة للموضوع الذي فاضت به نفسه.

ومما يميّز أسلوب طرفة تناثر ألوان البديع فيه تناثراً، لم يرد إليه طرفة بدافع الصنعة والزخرف والتأنق اللفظي، وإنما هو الطبع الشعري السجح يقذف بالتعابير في حميّا الانفعال، فتأتي في أشكال تلائم ذلك الانفعال، ويستدعيها النسق التعبيري الذي استقام في ذهن الشاعر، لنقل الحالة الشعورية التي أحسّها، وراح يترجمها بألفاظ وتعابير.

ومن ألوان البديع التي تناثرت في شعر طرفة: الطباق في قوله:[2]

وما زالَ تَشْرابي الخُمـورَ ولَذَّتي وبَيْعي وإنْفـاقي طَـريفي ومُتْلَدي

فقد طابق بين (بيعي وإنفاقي) و (طريفي ومتلدي).

وقوله[3]:

رأيتُ بني غَبْـراءَ لا يُنْكِـرونَني ولا أَهْلُ هذاكَ الـطِّرافِ المُمَدَّدِ

فقد طابق بين (بني غبراء) و (أهل الطراف الممدد)

وقوله:[4]

أَلا أَيُّهاذا الزّاجِري أحضُرَ الوَغَى وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أنت مُخْلِدي؟

---

(١) تقدم البيتان ص ١٦٧.
(٢) معلقته: ٥١.
(٣) تقدم البيت وشرحه ص ١٢٦.
(٤) معلقته: ٥٤.

فقد طابق بين (أحضر الوغى) و (أشهد اللذات).

وقوله:[1]

فإنْ كُنْتَ لا تَسْطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي فَذَرْني أُبادِرْها بِما مَلَكَتْ يَدي

فقد طابق بين (دفع منيتي) و (أبادرها).

وقوله:[2]

فلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَى وجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ متَى قامَ عُوَّدي

فقد طابق بين (العيشة) و (الموت) الذي كنى عنه بقيام العُوّد.

وقوله:[3]

فَذَرْني أُرَوِّي هامَتي في حَياتِها مَخافَةَ شُرْبٍ في المَماتِ مُصَرَّدِ

فقد طابق بين (أروّي) و (مُصَرَّدِ) وبين (حياتها) و (في الممات).

وقوله:[4]

كَريمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حياتِهِ سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنا صَدَى أَيُّنا الصَّدِي

فقد طابق بين (في حياته) و (إن متنا)، وبين (يروّي نفسه) و (الصّدي).

وقوله:[5]

أَرَى قَبْرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطالَةِ مُفْسِدِ

فقد طابق بين (البخيل النحّام) و (الغويّ المفسد).

وقوله:[6]

---

(١) معلقته: ٥٥.
(٢) معلقته: ٥٦.
(٣) معلقته: ٦١.
(٤) معلقته: ٦٢.
(٥) معلقته: ٦٣.
(٦) معلقته: ٦٨.

فما لي أراني وابنَ عَمّيَ مالِكاً مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنّي ويَبْعُدِ

فقد طابق بين (أدن منه) و (يبعد).

ومن تلك الألوان البديعية التي تساقطت في شعره التقسيم الواضح المرسل، وهو تقسيم الكلام إلى فقر، لا يراعى فيها سجع ولا وزن، كقوله:[٢]

ولا تَجْعَليني كَامْرِىء ليسَ هَمُّهُ كَهَمّي، ولا يُغْني غَنائي ومَشْهَدي

وقوله:[١]

ولكنْ نَفَى عَنّي الرِّجالَ جَراءتي وصَبْري، وإقْدامي عليهمْ ومَحْتِدي

وقوله[٣]:

لَعَمْرُك ما أَمْري عليَّ بِغُمَّةٍ نَهاري، ولا لَيْلى عَلَيَّ بِسَرْمَدِ

وهذا اللون من البديع عزيز جداً، وهو أقدم أنواع التقسيم المرسل الواضح. وفي البيت طباق أيضاً بين (نهاري) و (ليلي).

ولقد أورد أبو هلال العسكري ألواناً من البديع، التقطها من شعر طرفة ضمن أشعار المتقدّمين الذي سبقوا إلى هذه الألوان، منها التجنيس في قوله:[٤]

بِحُسامِ سَيْفِكَ أوْ لِسانِكَ والْـ ـكَلِمُ الأَصيلُ كَأَرْغَبِ الكَلْمِ

ومنها التذييل، وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكّد عند مَنْ فهمه:[٦]

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى لَكَا لطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ بِاليَدِ[٤]

---

(١) معلقته: ٩٤.
(٢) معلقته: ٩٧.
(٣) معلقته: ٩٨.
(٤) ديوانه: ٩٢.
(٥) الصناعتين: ٣٣٦. والكَلْم: الجرح.
(٦) معلقته: ٦٧.
(٧) الطِّوَل: الحبل.

فالمصراع الأخير تشبيه وتذييل[1].

ومنها الترصيع، وهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً[2]:

بَطيءٍ عَنِ الجُلَّى، سَريعٍ إلى الخَنَا ذَلولٍ بِأَجْماعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ[3]

ومنها التتميم والتكميل، وهو أن توفّيَ المعنى حظّه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره:[4]

فَسَقَى ديارَكَ غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيَمةٌ تَهْمي[5]

فقوله «غير مفسدها» إتمام وتحرّز من الوقوع فيما وقع فيه ذو الرمة في قوله:

أَلا يا اسْلَمي يا دارَمَيَّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائكِ القَطْرُ

فهذا الدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها لأن القطر إذا انهلّ فيها دائماً فسدت[6]. وقد أورد أبو هلال هذا الشاهد لطرفة على أنه من الاستثناء أيضاً، وهو استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه[7].

ومنها الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادّاً يردّ عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدّمه، فإما أن يؤكّده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه[8]:

وتَصُدُّ عَنْكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ الـ ـعِرِّيضِ مُوضِحَةٌ عَنِ العَظْمِ[9]

---

(١) الصناعتين: ٣٨٩.

(٢) معلقته: ٩٥.

(٣) الجُلّ: الأمر الجليل. والخنا: الفساد. والأجماع: جمع جُمْعٍ، وهو قبض الرجل أصابعه وشدّه إياها. والملهّد: الملكوز المُدَفَّع.

(٤) ديوانه: ٩٣.

(٥) تقدم البيت ص ١٦٢.

(٦) الصناعتين: ٤٠٥.

(٧) الصناعتين: ٤٢٤.

(٨) ديوانه: ٩٢.

(٩) المخيلة: الخيلاء والتكبّر. والعِرّيض: المعترض فيما لا يعنيه. والموضحة: شجّة تبدي عن وضح العظم، أي بياضه.

بِحُسامٍ سَيْفِكَ أَوْ لِسانِكَ والـ ـكَلِمُ الأَصيلُ كَأَرْغَبِ الكَلْمِ[1]

فكأنه ظن أن معترضاً يقول له: كيف يكون مجرى اللسان والسيف واحداً، فقال: «والكَلِم الأصيل كأرغب الكَلْم[2]».

ومنها جودة الفاصلة، وحسن موقعها، وتمكّنها في موضعها. ومن جودة الفاصلة أن يضيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قصير قليل الحروف، فيتمم به البيت:[3]

إذا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلاحَ وجَدْتَني مَنيعاً إذا بَلَّتْ بِقائِمِهِ يَدي[4]

هذه هي ألوان البديع التي انبثت في شعر طرفة، فزادته إيقاعاً وموسيقية، وأشاعت فيه كثيراً من الماء والرونق.

وجماع القول في أسلوب طرفة: لفظ فصيح كريم مناسب للموضوع، وتركيب محكم رصين، تنسرب منه ومن المحسنات البديعية التي تناثرت هنا وهناك نغمة تناسب الموضوع الذي يطرقه، وتظلّل الجو الشعوري الذي كان يحياه حين فاضت نفسه بالشعر.

---

(١) تقدم البيت وشرحه: ١٤٣.
(٢) الصناعتين: ٤٠٨.
(٣) معلقته: ٨٦.
(٤) الصناعتين: ٤٦٦.

٢

عيوب في شعره

لم يخل شعر طرفة من هنات وعيوب قليلة، أحصاها له النقاد، وبيَّنوا مواضع العيب أو التقصير فيها، ونبَّهوا على أوجه الصواب، وساقوا شواهد لغيره من الشعراء، خلت من تلك العيوب، وبرئت من ذلك التقصير.

ذكر ابن قتيبة[١] أن مما يعاب من شعر طرفة قوله يمدح قوماً:[٢]

أُسْدُ غِيلٍ فإذا ما شَرِبوا ... وَهَبوا كُلَّ أَمونٍ وطِمِرّْ[٣]
ثُمَّ راحُوا عَبَقُ المِسْكِ بهِمْ ... يَلْحَفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ[٤]

ذكر أنهم يعطون إذا سكروا، ولم يشرط لهم ذلك في صحوهم، كما قال عنترة:

وإذا شَرِبْتُ فإنَّني مُسْتَهلِكٌ ... مالِي، وعِرْضي وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى ... وكما عَلِمْتِ شَمائِلي وتَكَرُّمي

قالوا: والجيد قول زهير:

---

(١) الشعر والشعراء: ١٩٤ - ١٩٥.
(٢) ديوانه: ٥٩.
(٣) الغيل: شجر كثيف ملتف يستتر فيه كالأجمة. والطمر: الفرس الجواد المستفز للوثب والعدو.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٤٠.

أخو ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مالَهُ ولكنَّهُ قد يُتْلِفُ المالَ نائِلُهْ

وقال بعض المحدثين:

فتًى لا تَلوكُ الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِهِ ولكنْ عَطايا عُوَّدٌ وبَوادِي

وممن ذكروا هذا العيب من شعر طرفة ونبّهوا على وجه الصواب فيه ابن عبد ربه[1]، والبكري[2]، والمرزباني[3]، والعباسي[4].

وذكر ابن طباطبا أن مما أخذ على طرفة قوله:[5]

كَأَنَّ جَناحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفا حِفافَيْهِ شُكًّا في العَسِيبِ بِمِسْرَدِ[6]

وعدّه من الشعر القاصر عن الغايات، لأن النجائب توصف بدقة شعر الذنب وخفته، وقد جعله طرفة كثيفاً طويلاً عريضاً[7].

وقد ذكر هذا المأخذ على طرفة كلٌّ من المرزباني[8]، والعسكري[9].

ومما ذكره ابن طباطبا أيضاً من عيوب شعر طرفة قوله:[10]

مِنَ الزَّمِراتِ أَسْبَلَ قادِماها وضَرَّتُها مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ

إذ لا يكون القادمان إلا لماله آخران، وهي الناقة، فلها أربعة أخلاف[11]

وقوله:[12]

---

(١) العقد الفريد ٦/ ١٧٨.
(٢) سمط للآلي: ٦٣٤.
(٣) الموشح: ٧٨.
(٤) معاهد التنصيص: ١/ ٣٦٤.
(٥) معلقته: ١٦.
(٦) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٦.
(٧) عيار الشعر: ٩٩.
(٨) الموشح: ١٣٦.
(٩) الصناعتين: ٩٩.
(١٠) تقدم البيت وشرحه ص ٣١.
(١١) عيار الشعر: ١٠١.
(١٢) تقدم البيت وشرحه ص ١٢٣.

ولَسْتُ بِحَلّالِ التِّلاعِ مَخافَةً ولكنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ

وعلق ابن طباطبا على هذا البيت بقوله: فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول[1].

وأفاض أبو هلال العسكري في تعليقه على البيت السابق مبيناً وجه النقص فيه، فقال: «ومما لم يوضع فيه الشيء مع لفقه من أشعار المتقدمين قول طرفة: «ولست بحلال التلاع» فالمصراع الثاني غير مشاكل الصورة للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحاً، لأنه أراد: ولست بحلّال التلاع مخافة السؤال، ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجه الكلام. فلم يعبّر عنه تعبيراً صحيحاً، ولكنه خلطه وحذف منه حذفاً كثيراً، فصار كالمتنافر، وأدواء الكلام كثيرة». [2]

وأورد أبو هلال العسكري من عيوب طرفة قوله[3]:

وإذا تَلْسُنُني أَلْسُنُها إنَّني لَسْتُ بِمَوْهُونٍ فَقِرْ

وعلق عليه بقوله: والعاشق يلاطف مَنْ يحبه ولا يحاجّه، ويُلاينهُ ولا يُلاجُّه. وقد قال بعض المحدثين:

بُنِيَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلَوْ أَنْصَفَ العاشِقُ فيه لَسَمُجْ
ليسَ يُسْتَحْسَنُ في وَصْفِ الهَوَى عاشِقٌ يَعْرِفُ تَأليفَ الحُجَجْ[4]

واشتد أبو هلال في نقده طرفة لأخذه معنى امرىء القيس:

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ...

فقال: «وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى، فتتناوله بلفظه كله أو أكثره، أو

(١) عيار الشعر: ١٢٥.
(٢) الصناعتين: ١٤٩.
(٣) تقدم البيت ص ٩٧.
(٤) الصناعتين: ٨٩.

تخرجه في معرض مستهجَن، والمعنى إنما يحسُنُ بالكُسْوة... فمما أُخِذ بلفظه ومعناه، وادَّعى آخذُه ـ أو ادُّعِي له ـ أنه لم يأخذه، ولكن وقع له كما وقع للأول، كما سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجَال توافرت على ألسنتها وذلك قول طرفة[1]:

وُقوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقولونَ: لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَلَّدِ

وهو قول امرىء القيس:

وُقوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقولونَ: لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَمَّلِ

فغيرّ طرفة القافية[2].

هذه هي المآخذ التي أحصاها القدماء على طرفة، وهي مآخذ لا تذكر بجانب حسنات شعره التي تسابق النقاد إلى سَوْقها على أنها من أوابد الشعر ومخترعه، ويقلّل من خطورة هذه المآخذ أنها قليلة، وأنه لم يسلم من مثلها شاعر.

(١) معلقته: ٢.
(٢) الصناعتين: ٢٣٥.

٣

منزلته الشعرية

تبوّأ طرفة على حداثة سنه منزلة عالية في عالم الشعر، نوّه بها القدماء، وأشادوا بصاحبها، وعدّوه من متقدمي الفحول من الشعراء.

بيد أنهم لم ينزعوا عن قوس واحدة في تحديد منزلته الشعرية، بل تفاوتت أحكامهم النقدية في مكانة طرفة الشعرية ومنزلته التي احتلها بين الشعراء.

فمنهم مَنْ عدّه أشعر الناس واحدة، ومنهم مَنْ فضّله على الشعراء جميعاً، ومنهم مَنْ جعله أشعر الشعراء بعد امرىء القيس، أو بعد الأعشى، ومنهم مَنْ عدّه في الطبقة الرابعة من فحول شعراء الجاهلية.

وفيما يلي عرض سريع لأقوال القدماء من نقاد وشعراء في شاعرية طرفة وفنه، ومنزلته التي حازها بين الشعراء، والطبقة التي ارتضاها بعضهم له، وصنّفه فيها.

لقد صنّفه ابن سلام في رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين، ولكنه، في الوقت نفسه، عدّه أشعر الناس واحدة، إذ قال في تقويم فحول هذه الطبقة:

«وهم أربعةٌ رَهْطٌ فحولُ شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة. وعَبِيد بن الأبرص، وعلقمة بن عَبَدة، وعدي بن زيد.

فأما طرفة فأشعر الناس واحدة، وهي قوله:

لِخَـوْلَـةَ أَطْـلالٌ بِبُـرْقَـةِ ثَهْمَـدِ وقفتُ بها أبكي وأبكي إلى الغَدِ[1]

وتليها أُخرى مثلُها، وهي:

أَصَحَـوْتَ اليومَ أمْ شـاقَتْـكَ هِـرْ ومِنَ الحُبِّ جُنـونٌ مُسْتَـقِـرْ[2]

ومِنْ بَعْدُ له قصائد حِسانٌ جِياد». [3]

وواضح أن ابن سلّام أكّد في قوله هذا أن موضع طرفة مع الأوائل لولا قلة شعره بأيدي الرواة.

ووصفه ابن قتيبة بأنه أجودهم طويلة[4]، ونقل عن أبي عبيدة قوله:

«طرفة أجودهم طويلة، ولا يلحق بالبحور، يعني امرأ القيس وزهيراً والنابغة، ولكنه يوضع مع أصحابه الحارث بن حِلّزة، وعَمْرو بن كلثوم، وسُوَيْد بن أبي كاهل». [5]

وذكر ابن رشيق طرفة في باب المقلّين من الشعراء، مشيراً إلى تفضيل العلماء له بمعلقته، فقال: وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء، وهي المعلقة[6].

أما الذين قدّموه على الشعراء جميعاً، فيعلّلون تقديمهم إياه بأنه بلغ بحداثة سنّه ما بلغ القوم في طول أعمارهم[7].

فقد نقل السيوطي من كتاب (فضل الشبان وتقديمهم على ذوي الأسنان[8]) قول أبي عمرو بن العلاء: «لم نجد أحداً من الشعراء تعجّل في حداثة السنّ إلا

---

(١) تقدم البيت بهذه الرواية والتعليق عليه ص ٧٨.

(٢) تقدم البيت بهذه الرواية والتعليق عليه ص ٧٨.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١: ١٣٧، ١٣٨.

(٤) الشعر والشعراء: ١٨٥.

(٥) المصدر السابق: ١٩٠.

(٦) العمدة ١/ ١٠٢.

(٧) انظر جمهرة أشعار العرب: ٧٤ ط بيروت.

(٨) هذا كتاب ذكر مؤلفه في خطبته أنه ألفه للخليفة جعفر المقتدر، لأنه تولى الخلافة وسنّه ثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر سناً منه.

طرفة، فإنه قال الشعر حدثاً، وشُهر في سنوات، وقُتِل وهو ابن بضع وعشرين سنة، ولذا لم يذكر في شعره الشيب، ولا بكى عليه. وسئل حسّان: من أشعر الناس؟ فقال: قبيلة أم قصيدة؟ قيل: كلاهما. قال: أما أشعرهم قبيلة فهذيل، وأما أشعرهم قصيدة فطرفة. وسئل جرير: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً[1]. . . ».

ويروي أبو الفرج في سياقة نسب جرير وأخباره أن عبد الملك أو ابنه الوليد قال لجرير: من أشعر الناس؟ فقال: ابن العشرين[2]

وعدّ لبيدٌ طرفةَ أشعر الناس بعد امرىء القيس، وذلك فيما رواه أبان بن عثمان البَجَلي وتناقلته عنه المصادر، قال: «مر لبيد بالكوفة في بني نَهْد، فأتبعوه رسولاً سؤولاً يسأله: من أشعر الناس؟ قال: الملك الضلّيل. فأعادوه إليه، قال: ثم مَنْ؟ قال: الغلام القتيل ـ وقال غير أبان: ابن العشرين ـ يعني طرفة ـ قال: ثم مَنْ؟ قال: الشيخ أبو عقيل ـ يعني نفسه[3] ».

ويذكر أبو الفرج في سياقة أخبار الأعشى رواية أخرى، يغلب عليها الخيال والأسطورة، تصنّف طرفة بعد امرىء القيس، وهي عن رجل من أهل البصرة دار بينه وبين جنّيّ حوار عن أشعر الناس؟ فقال الجنّيّ: الذي يقول:

وما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلّا لِتَضْرِبي ... بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقتَّلِ

فسأله الرجل البصري: ومن هو؟ فقال: امرؤ القيس. ثم سأله: فمن الثاني؟ قال: الذي يقول:

تَطْرُدُ الفُرَّ بِحَرٍّ ساخِنٍ ... وعَكِيكِ القَيْظِ إنْ جاء بِقُرّ[4]

---

(١) شرح شواهد المغني: ٢٧٢.

(٢) الأغاني ط الدار ٨/٥٣، ١٩٩، ساسي ٧/١٢٤.

(٣) طبقات فحول الشعراء: ٥٤. وانظر الخبر في الشعر والشعراء: ١٨٩، والعقد ٦: ١٠٥، والأغاني ١٥: ٣٦٨، ٣٧٥، وشرح نهج البلاغة ٤: ٥٠٢، والعمدة ١: ٩٥، والمزهر ٢: ٤٧٩، ومعاهد التنصيص ١: ٣٦٤.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٩٣.

فسأله البصري: ومن هو؟ قال: طرفة. ثم سأله: ومن الثالث؟ قال: الذي يقول:

وتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ العَرو ... سِ بالصَّيْفِ رَقْرَقْتَ فيهِ العَبِيرا

فسأله الرجل البصري: ومن يقوله؟ قال: الأعشى[1].

وذكر صاحب الخزانة في ترجمة طرفة أنه أشعر الشعراء بعد امرىء القيس، ومرتبته ثاني مرتبة، ولهذا ثُنِّيَ بمعلقته. ونقل عن ابن قتيبة قوله في طرفة: «هو أجود الشعراء قصيدة».[2]

وعدّ الأخطلُ طرفةَ أشعر الناس بعد الأعشى، وذلك فيما رواه أبو الفرج عن عمر بن الوليد بن عبد الملك أنه سأل الأخطل عن أشعر الناس؟ قال: الذي كان إذا مدح رفَع، وإذا هجا وضَع. قال: ومن هو؟ قال: الأعشى. قال: ثم مَنْ؟ قال: ابن العشرين (يعني طرفة[3]).

هذه هي معظم الآراء والأحكام التي أطلقها القدماء في تحديد منزلة طرفة الشعرية، وتصنيفه بين الشعراء، وهي آراء وأحكام تتجه في جملتها إلى الإجماع على تقديمه، وعدّه من الفحول الأوائل، لا يفضّلون عليه سوى امرىء القيس. ولو أن شعره سلم كلّه، ووصل إلى أيدي الرواة لما تردّد الذين وضعوه في الطبقة الرابعة في وضعه في الطبقة الأولى، وهذا ما يدل عليه قول ابن سلام في فحول الطبقة الرابعة التي صنّفه فيها: «وهم أربعةٌ رَهْطٌ فحولٌ شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة».[4]

فالطبقة الرابعة إذاً هي دون ما يستحق من منزلة ومكانة، وإنما وُضِع فيها لضياع شعره وقلته بأيدي الرواة. أما موضعه الحقيقي الذي تؤهله شاعريته له، فهو الطبقة الأولى مع فحولها الأوائل.

---

(١) الأغاني ٩: ١١١، جمهرة أشعار العرب ٤٥ ط ـ بيروت.

(٢) الخزانة ١: ٤١٤.

(٣) الأغاني ٨: ٢٩٣ (ساسي).

(٤) طبقات فحول الشعراء ١: ١٣٧.

وإني لأحسب أن هذه الدراسة التحليلية الشاملة التي تقدمت قد كشفت عن معالم جديدة في شاعرية طرفة، وجلّت من خصائصه الفنية ومبتكراته التي سبق إليها ما يجعلنا لا نتردّد في عدّه من فحول شعراء الطبقة الأولى الأوائل، على قلّة ما في أيدينا من شعره الثابت الصحيح.

obeikandl.com

الخـاتـمَة

انتظمت هذه الدراسة في بابين، الأول بعنـوان (طرفة الرجل)، ويقع في فصلين، والثاني بعنوان (طرفة الشاعر)، ويقع في ثلاثة فصول.

وقد تناولت في الباب الأول بيئة طرفة الواسعة التي تقلب فيها، وحياته القصيرة التي عاشها حافلة بالأحداث المثيرة، حتى انتهت بمقتله، وهو في ريّق الشباب وربيع العمر.

وفي الباب الثاني تناولت شعره، فعرضت لروايته وتدوينه، وما أصابه من ضياع وانتحال، ثم تناولت أغراضه الشعرية، فوقفت عند كل غرض مستقرئاً خصائصه الفنية فيه، ثم خَلَصت إلى شاعريته وفنّه، فاستعرضت الخصائص الفنية العامة لشعره من خلال دراستي المجزّأة لأغراضه.

ووقفت بعد ذلك عند ما أحصاه القدماء عليه من هنات وعيوب، نبّهوا عليها، وبيّنوا مواضع العيب أو التقصير فيها.

ثم عرضت في النهاية لمنزلته الشعرية التي نوّه بها القدماء، وأشادوا بصاحبها وبشاعريته الخصبة المبكرة، فعرضت أقوالهم في المرتبة التي ارتضوها له، والطبقة التي صنفوه فيها، وانتهيت إلى القول بجدارته بالطبقة الأولى مع الفحول الأوائل.

ولعلي لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن هذه الدراسة التي اتسعت لحياة طرفة وشعره، وحللت أغراضه وفنه، واستقرأت خصائصه الفنية العامة في معناه ومبناه، قد قدمت أدق وأوضح صورة عرفناها عن شخصية طرفة وفنّه حتى الآن، وأسفرت عن نتائج أدبية هامة، أوجزها في النقاط التالية.

١ ـ لقد كشفت هذه الدراسة عن شاعر فحل كبير، سبق إلى كثير من الأبكار الخرّد

من المعاني التي لم يطرقها قبله شاعر، وحفظ له تاريخ الأدب هذا السبق، فقرن اسمه بتلك المبتكرات التي سبق إليها، وأخذها الشعراء عنه.

٢ ـ جلّت هذه الدراسة موهبة طرفة في الوصف، وأبرزته وصّافاً مبدعاً من الطراز الأول، لم يقتصر إبداعه في الوصف على الناقة والخيل فحسب، بل سرى هذا الإبداع والتجويد والإتقان والإحكام في الوصف والتصوير في أغراضه الشعرية كلها، فكأنه كان ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البللور، كما يقول الرافعي[1].

٣ ـ أبرزت هذه الدراسة أيضاً موهبته الفنية الفائقة في الهجاء، وبخاصة الهجاء الشخصي الساخر، إذ أتى بألوان من الصور (الكاريكاتورية) المضحكة لمهجوّيه، جعلت منه الشاعر الهجّاء الساخر الأول في تاريخ الأدب العربي.

٤ ـ أثبتت هذه الدراسة، بما استقطرته من خصائص شعره في الفخر، أنه شاعر القبيلة الأول في الجاهلية، لا نكاد نجد شاعراً جاهلياً مثله، وهب نفسه لقبيلته، وحباها عصارة فنه وذوب عاطفته، ووقّع ألحان مكارمها وأمجادها، وجعلها أنشودة في سمع الزمان.

٥ ـ أبانت هذه الدراسة أن شعره من النمط الوجداني الصادق. فقد كانت مرآة لما هجست به نفسه من مشاعر وأحاسيس، وصورة انعكست على صفحتها الحياة العربية الجاهلية، بسلمها وحربها، وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها، وأزيائها وأساليب عيشها. وتجلّت فيها البيئة العربية بجبالها وسهولها وأطلالها ونباتها، وما انطلق في أرجائها من خيل وإبل وظباء ووحش، وما قام في ذلك العهد البعيد فيها من صناعات، كصناعة السفن في البحرين، ودباغة الجلد في اليمن، وصناعة الورق في الشام، وما وُجد في تلك الأيام من أدوات، تساقطت أسماؤها في شعره، مثل المبرد والعلاة والمرآة والمرداة، وما برع به عرب البحرين آنذاك من ملاحة، تجلّت بركوبهم البحر، تمخر بهم سفنهم عباب الخليج العربي ودجلة.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

وبعد، فإذا كان هذا الشاعر الكبير لم يحظ حتى الآن بدراسة لائقة بمكانته، فإني لأرجو أن تكون هذه الدراسة التحليلية الشاملة لشخصيته وشعره، قد وفته حقه، وأنصفته، بتجلية خصائصه الفنية للدارسين، شاعراً من الفحول الجاهليين المقدَّمين، ممن لهم الصدارة في ثبت الشعراء العرب.

obeikandl.com